الشاعر العربي المعاصر
وثلاثة مواقف إزاء الحرية

بقلم أدونيس

- ١ -

كيف أتحرر من سيادة الاجنبي ؟ كيف اوفق بين التراث والتجاوز ؟ كيف أوحد بين الحلاج ولينين ؟

هذه ، فيما يخيل الي ، أهم الاسئلة التي تشغل الشاعر العربي المعاصر . السؤال الاول يطرح مشكلة الاستعمار . والسؤال الثاني يكشف عن مشكلة العلاقة بين الابداع والتراث ، ويكشف السؤال الثالث عن كيفية التوحيد بين الثورة كفكر يغير ، والثورة كنظام يبني .

- ٢ -

يعاني العربي مشكلة الاستعمار منذ حوالى خمسة قرون . في الحقبة الطويلة سلب كل شيء ، الا جوهره الذي بقي نارا تشتعل تحت رماد الايام . وعاش العربي طوال هذه الحقبة ، بلا أرض ولا ثقافة : غريبا عن ملكه ، وغريبا عن ذاته . وفي بدايات هذا القرن أخذت النار الكامنة تظهر وتنمو وتنتشر كالعشب . ومن حظ الشعراء العرب الذين ولدوا في هذا القرن انهم نشأوا مع النار وكانوا جزءا منها . فالنصف الاول من هذا القرن ، بل هذا القرن كله ، ليس بالنسبة الى الشاعر العربي المعاصر، تطلعا الى الحياة بحد ذاتها ، بقدر ما هو تطلع الى الحرية. كان عليه أن يبدأ كل شيء . أن يتحرر من الخارج وان يستعيد شخصيته في الداخل . كانت الحرية كلا وكانت تعني له الانعتاق ، على مستويات الانسان والحضارة جميعا . وغلب عليها بادىء بدء طابع التحرر من سيادة الاجنبي ، والاستقلال ، والسيادة القومية ، وكان الشاعر العربي جزءا حيا في نسيج القوى التي تفجر حركة التحرر أو تغنيها أو تصفها . وكان ، فيما يرسم الحرية السياسية والقومية ، يرسم الحرية الاجتماعية والفكرية . وكانت الكلمة ذاتها تتوتر تحت ريشته وتنعتق تماما كما تتوتر حياته وتنعتق . كان يحطم القيود في الموضوع والتعبير معا . وهكذا رافقت الثورة على سيادة الاجنبي الثورة على سيادة التقاليد والاوضاع الفاسدة ، سواء في الحياة أو الثقافة .

وقد ورثنا ، نحن هذا الجيل الحاضر من الشعراء، عبئا كبيرا مزدوجا : ايصال التحرر من الخارج وهو لما ينته ، الى تمامه بالتحرر في الداخل ، وابتكار أشكال وصيغ نامية جديدة لحياة آخذة بالنمو والتجدد . وجاءنا هذا العبء لحظة يتعمق الصراع مع السيادة الاجنبية ، ويتعقد ، اذ ينقلب الى صراع خفي ، بوجوه متعددة وأقنعة متعددة . ويرى جيلنا الشعري الى حياته كيف تنشق من جديد ، وكيف انه يخوض معركة يحارب فيها أجنبيا يتقنع هذه المرة بقوى عربية ، محميات أو محظيات، يزركشها الاستعمار العشيق بالمال والسلطان كالدمى . ويكتشف جيلنا ان خياره هو بين أن يتحول الى دمية أو يكون انسانا .

- ٣ -

فيما يخوض الشاعر العربي هذه المعركة مع السيادة الاجنبية ، يخوض معركة التحرر من القوالب السلفية التي تحاول بدورها ، ان تشله وتعزله عن حركة التاريخ، وعن التغير ، وتبقيه في أبدية الثبات . هذه القوالب السلفية في الفكر والحياة معا ، تتحول الى دعائم تشارك، بشكل أو آخر ، في الحيلولة دون تحقيق التحرر الكامل، أي تشارك في تمكين السيادة الاجنبية من الاستمرار ، بشكل أو آخر .

تتجسد هذه القوالب السلفية في قوى الرجعة والتقليد ، وهي ما تزال تسيطر الى حد كبير على الحياة العربية . هذه القوى لا ترى كمالا الا في الماضي . فليس التقدم عندها في السير نحو المستقبل ، وانما هو في العودة الى الماضي . مثلها الاعلى نظريا هو الايمان المطلق بكمال الماضي . وهو ، عمليا ، الخضوع للمؤسسات السياسية أو الدينية أو الاجتماعية التي تمثله .

ولئن كان الابداع كشفا ، فان المبدع اذ يرفض حياة الرجعة والتقليد ، ينقدها ويعريها ، بحيث تبدو على حقيقتها . لكن هذا يزعزعها ، لانه يكشف أبعادا تريد أن تبقى مطموسة ، لئلا تفقد طمأنينتها وتوازنها . هكذا تؤثر الجهل والكذب والرياء ، وتفضل الثبات . كل ابداع تغيير ، أو دعوة اليه . وهو ، جوهريا ، صدق . ومن هنا تنفر قوى الرجعة والتقليد من المبدعين ، وترى فيهم هدامين وفوضويين وتعمل على عزلهم .

هكذا تكافح ، بمختلف الوسائل ، لكي تفرض عالم القبول : يتعطل الحس النقدي ، ويبطل التمييز بين القديم

والجديد ، الماضي والحاضر ، الثبات والتغير . ويسيطر كمال الماضي وقيمه . ويذوب كل ابداع فيها ، لكي يتم القضاء على كل بدعة أو خروج على السلف . ولا تعود هناك حاجة الى الكشف ، أو الى آفاق فكرية جديدة . وتنعدم التجارب الشخصية ، وتنعدم الحرية .

وتجد قوى الرجعة والتقليد في نظرية الشعر لذاته ، ما يفيدها لانها تجد في كثير من الشعر الذي يصدر عنها ما يوفر المتعة والتسلية ، وما يلهي . فالشعر ، بحسب هذه النزعة ، لا يكتب لكي يقدم رؤيا جديدة ، أو يفتح أفقا جديدا ، أو يعبر عن تجربة انسانية جديدة . وانما يصنع خصيصا لكي يقدم طرفا ومصوغات . وهو ، لذلك ، يدور في اطار ذهني تجريدي ، خارج الحياة والتاريخ . الشعر هنا لا يعبر أو يشارك أو يرى ، بل يمنطق ويصف ويصطنع . وقوام الشعر هنا هو اللعب لا الواقع ، والكلمة لا الانسان . واذ تنعزل الحركة عن الواقع ، تصير تكرارا فارغا . واذ تنعزل الكلمة عن الانسان تبطل أن تكون وسيلة ابداع وتفجر لتتحول الى وسيلة صنع وزخرفة .

هكذا يبدو ان جوهر هذه النزعة هو القالبية والثبات . وهي تؤدي الى أن يصبح العالم لعبة ، والى أن تمتزج الحرية بالاعتباط . ومن هنا تؤدي بمن يصدر عنها ، الى أن يحيا هامشيا ، بلا مسؤولية ، في معزل عن عصره وأحداثه ، وعن الانسان نفسه . وهي ، بالتالي ، تولد الشك في معنى الشعر ذاته ، أي في الحرية ذاتها . فهي تصبح شكلية : دمية ، ليس لها أي بعد أو انغراس في الحياة . تصير حرية استمتاع واستسلام . وتلتقي الشكلية الجمالية هنا مع التقليدية القالبية في التشكيك بالتغير والثورة ، وفي فصل الشعر والشاعر عن الحياة والانسان ، وابقائهما في اطار زخرفي تزييني ، خالص . ذلك ان الشكلية الخارجية لا تعني في التحليل الاخير شيئا غير التكرار ، أي غير حالة من الثبات ـ النظام تأسر الشاعر في أقفاصها البراقة . وفي هذا الاسر لا يعود الشاعر الا صدى أو رجعا لآلية هذه الحالة .

ـ ٤ ـ

التاريخ هو التغير . تاريخ الشعر هو أشكاله الجديدة . تاريخ الحساسية الشعرية العربية هو تغيراتها . حيث لا يكون تغير ، يكون الانسان واقفا والزمن واقفا : يكون الانحطاط . والتغير هنا كلي : أفقي وعمقي في آن . تغير في البناء والعبارة والتركيب الخارجي . وتغير في النظر والرؤيا . ويبدو لي ان البعد الاساسي الذي يتخذه هذا التغير في الشعر العربي المعاصر ، هو ما يمكن أن أسميه **التخييل** . وأعني بالتخييل القوة الرؤياوية التي تستشف ما وراء الواقع ، فيما تحتضن الواقع . أي التي تطل على الغيب وتعانقه وتتمازج معه فيما تنغرس في الحضور . الشعر هنا رباط خلاق بين الحاضر والمستقبل ، الحضور والغيب ، الزمن والابدية ، الواقع وما وراء الواقع .

على ان هذا البعد سيغير المقاييس والقيم لانه يفتح فيما وراء الاشكال والصيغ عهدا جديدا من التجربة الابداعية في الشعر العربي . أعني ان الابداع لن يمكن تقييمه بمقاييس الماضي ، وان الطريقة النقدية التقليدية في فهم الشعر الجديد وتقييمه ستكون باطلة لا تجدي . فلكل ابداع جديد تقييم جديد . لكل رؤيا جديدة فهم نقدي جديد . ستكون قيمة النقد متعلقة بقدرة الناقد على الغوص في التجربة الجديدة بحد ذاتها ، وضمن حدودها ، وفهمها واستخلاص مغناها ، وتقييمها . وهذا يعني ان الناقد الجديد مسوق الى أن يلغي من ذهنه الشعر من أجل أن يثبت الشاعر : ليس هناك شعر وانما هناك شعراء . وبقدر ما تكون تجربة الشاعر فريدة أي بعيدة عن الماضي ، ستكون علامة على الاصالة والتغير ، أي قريبة الى الماضي في الوقت ذاته . فبين الشعر العربي الجديد والشعر العربي القديم صلات أعمق وأغنى مما بينه وبين الشعر العربي المعاصر الذي ينسخ القديم ويكرره . فالتاريخ هناك حي ، وكذلك الزمن والانسان . والتاريخ هنا واقف ميت ، وكذلك الزمن والانسان .

واذا كان هذا يؤكد حرية الشاعر ازاء الماضي ، فهو يؤكدها ، بالاحرى ، ازاء الحاضر . والسؤال الذي يشغل الشاعر على هذا المستوى مزدوج : كيف يحدد علاقته بالماضي ونظامه ، وبالحاضر ونظامه . او بعبارة ثانية : كيف يفسر الشاعر تجاوز الماضي من جهة ، وكيف يحدد علاقته بالثورة ـ التغير ، وبالثورة ـ النظام من جهة ثانية ؟

ان تجاوز الماضي لا يعني تجاوزه على الاطلاق ، وانما يعني تجاوزا لاشكاله ومواقفه ومفاهيمه وقيمه التي نشأت كتعبير تاريخي عن الحالات والاوضاع الروحية والثقافية والانسانية الماضية ، والتي يتوجب اليوم أن يزول فعلها لزوال الظروف التي كانت سببا في نشوئها . فلم يعد الشاعر العربي ينظر الى الماضي كنموذج للكمال ، أو كقدسية مطلقة . صار يهمه بقدر ما يدعوه الى الحوار معه ، وبقدر ما تبدو الطريق التي فتحها طريقنا ، نحن اليوم كذلك ، وبقدر ما يضيئنا ونحن نسير في عتمات الحاضر ، صوب المستقبل . هكذا يؤخذ الشاعر العربي الجديد ، من أصوات الماضي ، بتلك التي تعانق المستقبل فيما كانت تعانق حاضرها وتعبر عنه . فمثل هذه الاصوات مفتوحة أبدا للحوار والنمو والفعل ، بحيث اننا لا نقدر في تفكيرنا اليوم الا أن نتلاقى بها ، ونفيد منها ، ونتفاعل معها . وفي هذا لا نعاكس المجرى الذي يحفره نهر الابداع في اتجاه المستقبل ، وانما نصبح كمن يسير في هذا المجرى بفتوة أبدية .

أما من ناحية العلاقة بين الشعر والثورة ، فانعلينا

أن نميز بين الشعر من أجل الثورة ، والشعر الثوري ، أو الشعر ــ الثورة .

ان الشعر الذي لا يطمح الى أكثر من أن يخدم الثورة ويفيدها ويقلدها ، واصفا منجزاتها وأهدافها بتفاؤل يصل أحيانا الى درجة السذاجة ، شعر يخون في النهاية روح الثورة ومعناها ، ويخون روح الحرية ومعناها . يخون الثورة لانها بطبيعتها في حاجة دائمة الى اعادة النظر في خطواتها ، الى التجدد لكي لا تجمد في المؤسسات والمنجزات **وتصير ماضيا** . والثورة لا تتجدد الا بقوة نقدية خلاقة ، تمنحها بعدا جديدا أو تدخل اليها دفعة جديدة . فهي لا تتجدد الا بالابداع والحرية ، بروح التساؤل والبحث والتخطي : بالشعر الذي يبدأ دائما ــ يحرك ، يثير ، يوحي . فالشاعر ثائر بالطبيعة ، وليس شاعرا من ليس ثائرا . فلا يقدر الشاعر أن يكون الا مع التغير . والخطر الذي يواجه الثورة هو انها منذ أن تصبح نظاما تصبح سياسة . والسياسة قد تقبل كل شيء كل لحظة . بينما الشعر يعيد النظر ، كل لحظة ، في كل شيء . والسياسة تعنى بالعمل ، في حين يعنى الشعر ، بالكشف . وتهتم السياسة بالتنظيم والدعاوة ، ويهتم الشعر بتهديم الاطر الجامدة والتطلع الى مجال أرحب . وللشاعر الحلم والرؤيا ، وللسياسي التخطيط والتطبيق . والحرية للشاعر مطلقة ، وهي للسياسي صيغة أو معادلة أو وعد .

ومما يجب ان نذكره في هذا الصدد إن انعدام هذا التمييز لا يؤدي الى تشويه الشعر وحسب وانما يؤدي كذلك الى تشويه الحرية . فثمة شعراء يشردون أو يضطهدون ، بشكل او آخر ، وثمة شعراء يسكتون ، بشكل أو آخر ، على هذا التشريد وهذا الاضطهاد . وفي ذلك ما يوحي بأن الثورة التي قامت على الحرية لا تقدر أن تستمر الا بخنق الحرية . وكما ان الثورة هي ثورة بالحرية أولا ، فان الشاعر شاعر بالحرية أولا . لست شاعرا حرا ان كنت وحدي ، في وطني ، أتمتع بالحرية . فلئن كان وجود الانسان يقاس بمدى حريته ، فان حريته تقاس بمدى حرية الاخرين . فالشاعر الذي يستمر في كتابة الشعر صامتا على الطغيان حوله ، يكون مشاركا في هذا الطغيان . والحرية **كل** : فلا تكتمل انسانية الانسان ما لم تكتمل حريته . والحرية كالابداع تبدأ دائما . اذ يبدع الشاعر قصيدة لا يخلق لغته من جديد وحسب ، وانما يخلق الى ذلك ، شخصيته من جديد . وحين تعلق هذه البداية الدائمة أو ترجأ أو تعرقل ، فان ذلك يعني تعليقا لوجود الشاعر نفسه ، او ارجاء ، أو عرقلة . وكيف ننشىء وجودا صحيحا حرا ، بوجود معرقل مقيد ، بوجود لم يبدأ ؟

فيما يعاني الشاعر العربي المعاصر هذه المشاكل التي تكتنف عنها تلك الاسئلة الثلاثة ، يتوحد بالثورة والحرية ، بالثورة ــ الحرية التي تحرك الواقع وتغيره ، والتي تتخطى عناصرها ذاتها : البروليتاريا والدولة وقيم التاريخ والطبقة والثقافة ، الى رؤيا حياة بلا طبقات ولا دولة ، حيث تنتهي سيطرة الانسان على الانسان وتسود أخلاق الحرية والمسؤولية الشخصية ، بديل أخلاق السلطة والعقاب ، ويصير الشعر عملا آخر ، والعمل شعرا آخر .

وكما ان الشاعر والثائر واحد ، كذلك الشعر والثورة واحد . الثورة فعل برؤيا ، والشعر رؤيا بفعل . معا يوقظان الحاضر ويقودانه الى عناق ما يأتي .

وما يأتي انسانية عادلة مبدعة حرة . انسان يعيد ابتكار كل شيء فيما يمد جذوره في الآتي بلا نهاية . وفي هذه البقعة العربية كثير مما يغذي فينا هذه اللانهائية . هكذا يتحد الشاعر بدفعة الحياة ، فيما وراء المنطق والعقل ، حيث تصبح الطبيعة كائنا لينا ، يسمعه ويستجيب له . فهي أرض ولادة ونبوة . والانسان فيها مسكون فطريا بالغيب أي بالمستقبل وما وراء الواقع . المعلوم عنده عتبة لغير المعلوم . النهاية مدخل الى اللانهاية . هكذا يتحدث مع الحجر ، يمتطي الهواء ، ويسير على الموج . يوقظ الاسرار النائمة في الاشياء ، ويحركها لكي تتفتح وتقبل الينا . يغير نظام العالم ، ونظام الكلمة . فليس شاعرا من لا يكون تغيير العالم في أساس حدسه ورؤياه : من لا يكون ثائرا .

هذا الشعر الثورة ، هو شعر الحركة والتغير والتخطي ، شعر الواقع الشامل الذي يفتت عصرنا الميت لغاية واحدة : أن يولد عصر جديد آخر .

أدونيس

صدر حديثا :

الذين لا يبكون

قصص

بقلم :

عايدة مطرجي إدريس

٢٠٠ ق.ل **منشورات دار الاداب**